٢ - الحجابة (*)

أ - تعريف الحاجب :

يقول ابن خلدون [١] فى تعريف الحاجب : إنه الذى يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم.

وهذا التعريف يقلل من قيمة الحاجب نوعًا ما إذا أخذ على ظاهره. فالحقيقة أن الحاجب لا يفتح الباب ولا يقفله ولا يجلس بالباب أصلاً. وإنما وظيفته كانت أسمى من ذلك وأرقى، فهو واسطة بين الناس وبين الخليفة وهو الذى يدرس حوائجهم ويأذن لهم بالمثول بين يدى الخليفة، أو يوصى بقضاء حوائجهم فلا تكون هناك حاجة للمثول بين يديه، أو يرفض الإذن لهم إذا كانت الأسباب للمقابلة غير قوية، أو لم توجد أسباب، وعلى هذا كان الحاجب من خيرة الموثوق بهم كما كان فى كثير من الأحيان من أسرة الخلافة ويتضح ذلك من وصية عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز حينما ولاه على مصر وفيها يقول : وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك [٢].

تاريخ ظهور الحجابة وتطورها :

والحجابة ليست من منشآت السلف الصالح وإنما هى من عمل المتأخرين، ولهذا كثر الاختلاف فيها حسب الظروف والأحوال والأمكنة، ولم يكن للحجابة وجود فى عهد الرسول وإنما كانت جلساته مفتوحة للجميع فى المسجد، وتساوى عنده المسلمون مهما اختلفوا فى الجاه أو الثراء، وروى عنه قوله : «مَنْ ولى من أمر الناس شيئًا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب

---

* - د. أحمد شلبى : السياسة فى الفكر الإسلامى، ص ص ٢٢٦ - ٢٣٠، باختصار وتصرف.

١ - المقدمة : ص ١٦٨ .

٢ - الفخرى فى الآداب السلطانية : ص ١١٥ .

الله عنه يوم القيامة». وكانت الحال كذلك فى عهد الخلفاء الراشدين أيضاً، ولما اتصل المسلمون بالفرس وبالروم خشى عمر أن يتخذ ولاته حجاباً كما يفعل هؤلاء. فكان يسأل القادمين عليه من البلدان، عن ولاتهم هذه الأسئلة: هل يعود مرضاكم؟ هل يعود العبد؟ هل يجلس على باه؟.. فإن قالوا فى واحدة منها «لا» عزله. وكان من أهم شروط عمر على من يعمل والياً له ألا يتخذ باباً دون حاجات الناس.

ثم تغيرت الأحوال بعد الخلفاء الراشدين لعدة أسباب أهمها:

أولا - انتقل العالم الإسلامى من البداوة إلى الحضارة، وإذا كانت الحجابة لا توافق طباع البادية فإنها من عادات أهل الحضر أو لوازمهم.

ومن طباع البادية الأمن وعدم الخيانة، فالملك بالبادية لا يحتاج أن يحرس نفسه من زائريه. لأن البدو لا يخونون من ائتمنهم، ثم من طباع البادية البساطة. ولا يطيق البدوى أن يجلس على باب الخليفة إلا أن يؤذن له، فلما تغيرت الدولة إلى الحضارة لزم أن تظهر مظاهر هذه الحضارة، وكانت الحجابة إحدى هذه المظاهر [1].

ثانيا - كثرت الأعمال وتعقدت، ولم يعد الخليفة يستطيع أن يستقبل كل الراغبين فى مقابلته، فلزم أن يتخذ الحاجب ليدرس هذا أحوال طالبى المقابلة، فيُدخل عليه من يرى حاجة ماسة لدخوله، ويصرف بنفسه أمور الباقين أو يحيلهم إلى من يصرفها.

ثالثا - وهو الأهم تلك الاغتيالات المتتالية التى حدثت للخلفاء الراشدين الثلاثة: عمر وعثمان وعلىّ. وبخاصة تلك المؤامرة التى قتل فيها علىّ والتى كانت ترمى إلى التخلص من علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص.

---

١ - ابن خلدون: المقدمة، ص ١٦٨ - ١٦٩ بتصرف.

لذلك كان من الضرورى أن يتخذ الخليفة معاوية حاجبًا له، بل كان من الضرورى أن يتخذ بعض الولاة أو كلهم حجابًا لنفس الأسباب السابقة. وبخاصة أن عمرو بن العاص كان ضمن من شملتهم المؤامرة التى استشهد فيها علىَ (رضى الله عنه). ولهذا تجد الولاة أيضًا اتخذوا حجابًا، ولما ظهرت الوزارة اتخذ الوزراء حجابًا كما اتخذ قاضى القضاة حاجبًا ينظم دخول المتقاضين عليه.

ج - طرق الإذن على الخليفة:

وكان هناك طريقان فى الإذن للناس أو عدم الإذن لهم، أما الطريق الأول فكان يُلزم الحاجب أن يخبر المحجوب عن زواره ليتولى المحجوب بنفسه الإذن لهم أو ردهم، ويبدو ذلك من وصية "عبد الملك بن مروان" لواليه على مصر: «وانظر حاجبك فليكن من أهلك فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده» [1]. ومثل هذا الطريق يكون عنده قوة الخلفاء وعدم تسليمهم شيئًا من أمورهم لتابعيهم.

أما الطريق الثانى وهو الأعم فكان أن يترك أمر الإذن إلى الحاجب، كما شرحنا سابقًا، ولكن فى هذه الحال كان هناك دستور يلزم أن يتبعه الحاجب وبناء على ذلك الدستور كانت الأفضلية فى الدخول لأهل النسب، فإذا تساوت الأنساب فُضِّل أهل السن، فإذا تساووا فى السن فضل أهل العلم والأدب [2].

وكانت هناك جماعات لا تمنع عن الدخول أبدًا، وكانت هذه الجماعات تختلف باختلاف الخلفاء فيما أعتقد، وإن كان بعضها لا يختلف مع جميع الخلفاء، وقد حدد "عبد الملك بن مروان" الجماعات التى لا تمنع عنه بقوله

---

١ - الفخرى فى الآداب السلطانية: ص ١١٥.

٢ - جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى: ج ١، ص ٦٠.

لحاجبه: «وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاث: «المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد» [1].

د - مكانة الحجابة:

وتختلف الحجابة قوة وضعفًا باختلاف البلدان، وقد ذكر ابن خلدون [2] مكانة الحجابة في الدول مختلفة، وبيّن ما سبق أن ذكرناه من أن الحجابة لا تظهر أو لا تعظم في الدول البدوية وأنها في الدول المتحضرة أكثر ظهورًا وأهمية، ومع أن بعض الحجاب في بغداد وصلوا إلى مكانة سامية «كالربيع ابن يونس» وابنه «الفضل»، إلا أن الحجابة في الأندلس كانت أعظم شأنًا وأعلى شرفًا إذ كان الحاجب هو الرسول بين الوزارة والخليفة، فارتفع عن الوزارة بمباشرة السلطان، ولذلك نجد أنه لما ظهر في الأندلس بعض المستبدين اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، فكان «المنصور بن أبي عامر» وأبناؤه كذلك، ثمّ جاء من بعدهم ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفًا لهم [3].

وقد تكلم ابن خلدون عن الحجابة مرتين في مقدمته، فعقد فصلاً عن «الحجابة»، ولكنه عاد فعقد فصلاً آخر بعنوان «الحِجَاب وكيف يقع في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم» وفي هذا الفصل تكلم ابن خلدون عن مراحل ثلاثة للحجابة تتصل بمراحل ثلاثة للخلفاء، فالمرحلة الأولى هي مرحلة الانتقال من البداوة للحضارة وهذه يناسبها الحجاب الأول وهو تنظيم الدخول على الخليفة، وكانت في عهد الأمويين، والمرحلة الثانية التعمق في السلطان والمدنية، وفي هذه المرحلة ينقلب الخليفة إلى ملك له أخلاق الملوك، وهذه المرحلة يناسبها

---

١ - ابن خلدون، المقدمة: ص ١٦٩ - ١٧٠.

٢ - المقدمة: ص ٢٣٨، وانظر دائرة معارف البستاني، ج ٦، ص ٦٨٩ - ٦٩٠.

٣ - مقدمة ابن خلدون: ص ١٦٩ - ١٧٠.

الحجاب الثانى وهو أشد من الحجاب الأول حيث يفضى للخلفاء منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونهم من سواهم. وكانت هذه فى مطلع خلافة بنى العباس، والمرحلة الثالثة مرحلة التدهور وتسلُّط بعض الناس على الخلفاء. وفى هذه المرحلة يأتى الحجاب الثالث حيث يُحجَبُ الخواص أيضًا أو أكثرهم، بدعوى أن مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة، وفساد قانون الأدى. وبهذا يقطع الحاجبُ الخليفة عن الغير ويعوّده ملابَسَة أخلاقه هو حتى لا يستبدل به سواه. وقد كانت هذه المرحلة فى عهود تدهور الخلافة العباسية [1].

هـ - مكانة الحاجب عبر العصور الإسلامية [*]:

وقد علت منزلة الحاجب فى أيام العصر العباسى بارتقاء الحضارة الإسلامية، فأصبح يستشار فى كثير من مهام الدولة، وغدا له نفوذ فى توجيه سياستها؛ فقد استطاع الفضل بن الربيع أن يوقع بالبرامكة عند الرشيد. كما ان له أثر ظاهر فى إحداث الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون؛ فقد أغرى الأمين على العهد لابنه، وخلع أخيه المأمون من ولاية العهد، بل كثيراً ما كان يستبد بالنفوذ دون الوزير، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه فى كل أمور الدولة. وممن استبد منهم بالنفوذ "محمد بن ياقوت"، يقول مسكويه فى كتابه "تجارب الأمم": «غلب محمد بن ياقوت على تدبير الأمور، ونظره فى جباية الأموال. وحضور أصحاب الدواوين مجلسه، وتفرده بما يعمله الوزراء» [2].

---

١ - مقدمة ابن خلدون: ص ٢٩٤ - ٢٠٥.

* - نقلاً عن د. أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية (الحجابة والكتابة)؛ ص ص ١٠٢ - ١١٣.

٢ - كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله - ومحمد ياقوت كان حاجبًا للخليفة القاهر، ثم للخليفة الراضى من بعده، التنبيه والإشراف للمسعودى: ص ٣٦٦، ٣٢٧.

وفى عصر الدولة الأموية بالأندلس «الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم، فكانت فى دولتهم رفيعة غاية، كما تراه فى أخبارهم، كابن حديد وغيره من حجابهم، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها. فكان المنصور بن أبى عامر وأبناؤه كذلك. ولما بدأوا فى مظاهر الملك وأطواره، جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونها شرفًا لهم. وكان أعظمهم ملكًا بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لابد له من ذكر الحاجب، وذى الوزارتين يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة. وبذى الوزارتين على جمعه لخطتى السيف والقلم» [1].

و «لم يكن فى دول الغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم، للبداوة التى كانت فيهم. وربما يوجد فى دولة العُبيديين بمصر عند استعظامها، وحضارتها. إلا أنه قليل [2].

وفى عهد المماليك فى مصر لم تقتصر مهمة الحاجب على إدخال الناس على السلطان. بل تجاوزتها إلى الفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود. ثم اتسعت سلطته تدريجيًا [3].

---

١ - مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦٠٩.

٢ - المصدر السابق: ج ٢، ص ٦١٠.

٣ - الخطط للمقريزى: ج ٢، ص ٢٢٠، ٢٢١.

٣ - الكتابة

أ - تاريخ ظهور الكتابة :

العرب أمة أمية لا تقرأ ولاتكتب ، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة منهم حين ظهور الإسلام إلا قليل ، لا يتجاوز بضعة عشر رجلاً ، من بينهم عمر وعثمان ، وعليّ ، وطلحة ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سفيان ، وابناه معاوية ويزيد [١] .

وكان عثمان ، وعليّ ، وأبى بن كعب [٢] ، وزيد بن ثابت ممن يكتبون للنبى ﷺ القرآن الكريم ، والرسائل التى كان يرسلها إلى الملوك والأمراء ، وبعضهم كان يكتب له حوائجه [٣] .

ولما تولى أبو بكر (رضى الله عنه) الخلافة اتخذ عثمان كاتبًا له [٤] ، يكتب إلى العمال والقواد ، وغدت الكتابة منصبًا ذا أهمية للدولة .

وحين تولى عمر الخلافة كتب له زيد بن ثابت ثم غيره ، وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ودونت الدواوين ، ظهرت الحاجة الماسة للكتابة ؛ فعين (رضى الله عنه) «كاتبًا لكل ولاية يكتب فى ديوانها ، وكان الكاتب

---

١ - فتوح البلدان للبلاذرى : ص ٤٧٧ . قصة الحضارة للمؤرخ ول . ديورانت : ج ٢ ، ص ٢١ من المجلد الرابع .

٢ - قيل إنه أول من كتب للنبى ﷺ . الطبرى : ج ٢ ، ص ٤٢ ، فتوح البلدان للبلاذرى : ص ٤٧٨ . تاريخ أبى الفداء : ج ١ ، ص ١٥٤ .

٣ - راجع التنبيه والإشراف للبلاذرى : ص ٢٤٥ ، ففيه بيان لكتاب النبى ﷺ ، وما كان يقوم به كل واحد منهم ، وذكر صاحب صبح الأعشى : أنه رأى فى سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبى ﷺ نيف وثلاثون كاتبًا ، ج ١ ، ص ٩٢ .

٤ - هو الذى كتب عهد عمر بالخلافة عن أبى بكر - رضى الله عنه - صبح الأعشى : ج ١ ، ص ٩٢ .

يكتب في أول الأمر لديوان الجند، وبيت المال؛ فتولى عثمان وعليّ [1] وانقضت دولة الخلفاء، والكتابة منحصرة في واحد يضبط حساب الديوان من أعطيات الجند وأسمائهم، ويكتب المراسلات، وربما كانا اثنين، يتولى الثاني كتابة بيت المال» [2].

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، وتعددت مصالح الدولة، تعدد الكُتاب وصاروا خمسة:

١ - **كاتب الرسائل**: يخاطب الملوك والأمراء والعمال وغيرهم.

٢ - **كاتب الخراج**: يدون حساب الخراج، داخله وخارجه.

٣ - **كاتب الجند**: يقيد أسماء الأجناد، وطبقاتهم، وأعطياتهم. ونفقات الأسلحة وغير ذلك.

٤ - **كاتب الشرطة**: يكتب التقارير عما يقع من أحوال القواد [3] والديات وغيرها.

٥ - **كاتب القاضي**: يكتب الشروط والأحكام.

وأهم هؤلاء الكُتاب وأقدمهم، هو كاتب الرسائل، وقد يُسمى كاتب السر، وهو يد الخليفة ومستودع سره، ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولونه أقرباءهم وخاصتهم، كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم، وخلوص أسرارهم، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين.

---

١ - اتخذ عثمان - رضي الله عنه - مروان بن الحكم كاتبًا له، كما اتخذ عليّ - رضي الله عنه - عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ كاتبًا له، صبح الأعشى: ج ١، ص ٩٢، الجهشياري: ص ١٢، ١٤.

٢ - تاريخ التمدن الإسلامي للأستاذ جورجي زيدان.

٣ - القواد بكسر القاف جمع قود وهو القصاص.

وفى أيامهم - أى العباسيين - كانت هذه الرتبة رفيعة المنزلة، وكان الكاتب ينفرد بالأمر دون الخليفة؛ فكان يصدر السجلات، ويكتب فى آخرها اسمه، ويختم عليها بخاتم السلطان، ثم صارت الكتابة إلى وزرائهم، وكان الوزير يجلس بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص والشكاوى المرفوعة إليه [1].

وأول من وقع على الرقاع. والقُصَص بين يدى الخليفة، «جعفر بن يحيى البرمكى»، لما أطلق الرشيد يده فى أمور الدولة ومقاليدها، ثم تتابع الوزراء من بعده على ذلك، وقد يوقع السلطان بنفسه على هذه الرقاع إذا كان مستبدا بأمره، قائمًا على نفسه [2].

وقد ذخر العصر العباسى الأول بكثير من الكُتاب المبرزين. ممن لم يسمح الدهر بمثلهم. مثل «الربيع بن يونس» - فى عهد المنصور -؛ «ويحى بن خالد البرمكى»، وابنيه الفضل وجعفر. والفضل بن الربيع - فى عهد هارون الرشيد -؛ «والفضل والحسن ابنى سهل؛ وأحمد بن يوسف» - فى عهد المأمون -. «ومحمد عبد الملك الزيات» - فى عهد المعتصم، وابنه الواثق -.

«وفى أخريات دولة بنى العباس استقلت الكتابة، وعهد فيها إلى غير الوزراء، وكانوا ببغداد يُقال لهم كُتاب الإنشاء، وكبيرهم يُدعى رئيس ديوان الإنشاء... أو كاتب السر، وكل أمور هذا الديوان إلى الوزير، وكانوا يسمونه

---

١ - يقول «ابن خلدون» ج ٢، ص ٦١٩: «ومن خطط الكتابة التوقيع؛ وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها، والفصل فيها متلقاه من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه».

٢ - مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦١٨. تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان.

أيضًا الديوان العزيز، وهو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية فى هذه الأيام» [1].

ب - صفات الكاتب :

ولسمو هذه المرتبة كان صاحبها : «لا يتخير إلا من أرفع طبقات الناس. وأهل المروءة والحشمة منهم. وزيادة العلم وعارضة البلاغة» [2]. وأحسن من استوعب الصفات والشروط التى يجب أن تتوافر فى أهل صناعة الكتابة، «عبد الحميد الكاتب» فى رسالته الشهيرة إلى الكُتاب، وقد ذكرها بنصها العلامة ابن خلدون [3]، ومما جاء فيها قوله : «فتنافسوا يا معشر الكُتاب فى صنوف الآداب. وتفقهوا فى الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية؛ فإنها ثقاف [4] ألسنتكم. ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار. واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم» [5].

وكان الكاتب فى الدولة الطولونية يقوم بأعمال الوزير، إذ لم تعرف الوزارة فى مصر قبل الدولة الإخشيدية.

وفى عهد الفاطميين كانت الكتابة تلى الوزارة فى الرتبة؛ ولذا فقد كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن يأنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور. وكان الكاتب يقوم بعمل الوزير إذا رأى الخليفة الاستغناء عنه.

---

١ - تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان.

٢ - مقدمة ابن خلدون : ج ٢ ، ص ٦١٩ .

٣ - المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٦٢٠ - ٦٢٥ .

٤ - ثقاف ككتاب : ما تسوى به الرماح - القاموس.

٥ - مقدمة ابن خلدون : ج ٢ ، ص ٦٢١ .

ج - الكتابة وتدوين الدواوين فى الدولة الإسلامية :

والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال [١]. وهو فارسى معرب [٢].

«وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كُتاب الرسائل، ومكان جلوسهم بباب السلطان، وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر فى سائر هذه الأعمال، وقد يفرد كل صنف منها بناظر على حسب مصطلح الدولة» [٣].

أما عن بداية تدوين الدواوين فلم يكن على عهد رسول الله ﷺ، وعهد أبى بكر (رضى الله عنه) ديوان بالمعنى المعروف لإحصاء الأموال وضبط العطاء [٤]، فلما كان زمن عمر (رضى الله عنه) كثر المال، واتسعت البلاد،

---

١ - الأحكام السلطانية: ص ١٧٥، وقال ابن الأثير: هو الدفتر الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء - لسان العرب.

٢ - وقيل إنه عربى ومعناه، الأصل الذى يرجع إليه، ويعمل بما فيه، ومنه قول ابن عباس: إذا سألتمونى عن شئ من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب، صبح الأعشى: ج ١، ص ٩٠.
وديوانه أى مجانين بلغة الفرس، وحذفت الهاء من ديوانه تخفيفًا لكثرة الاستعمال فقيل: ديوان، مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦١٣.

٣ - مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦١٣.

٤ - وجد مبدأ إحصاء الناس وكتابتهم على عهد رسول الله ﷺ، كما وجد فى عهده صلوات الله عليه كتابة الجند الذين أعدوا للغزو فى سبيل الله؛ فقد أخرج البخارى بسنده عن حذيفة - رضى الله عنه - قال: قال النبى ﷺ: «اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس: فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل....» وأخرج أيضًا بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى كتبت فى غزوة كذا وكذا، وامرأتى حاجة، قال: ارجع فحج مع امرأتك» وراجعه فى باب كتابة الإمام للناس، وفى باب من اكتتب فى جيش فخرجت امرأته حاجة، وفى باب الحج.
وظاهر أن الكتابة التى كانت فى زمن النبى ﷺ لم ترتفع إلى مستوى التدوين الذى حصل فى زمن عمر - رضى الله عنه.

وكثر الناس ؛ فدونت الدواوين لوجود الدواعي ؛ فكان رضوان الله عليه أول من وضع الدواوين في الدولة الإسلامية.

وسبب وضع الدواوين مختلف بين الناس فقيل أن أبا هريرة (رضي الله عنه) قدم عليه بمال من البحرين، فقال له عمر : ماذا جئت به؟ فقال : خمسمائة ألف درهم ؛ فاستكثره عمر ؛ فقال له : أتدرى ما تقول؟ قال : نعم. مائة ألف خمس مرات ؛ فقال عمر : أطيب هو؟ قال : لا أعلم ذاك ؛ فصعد عمر المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس قد جاءنا مال كثير ؛ فإن شئتم كلنا لكم كيلاً. وإن شئتم عددنا لكم عداً ؛ فقال إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانًا لهم. فدون أنت لنا ديوانًا.

وقال جماعة : بل سببه مال أتى به أبو هريرة من البحرين، فاستكثروه. وتعبوا في قسمه، فسموا إلى إحصاء الأموال، وضبط العطاء والحقوق. فأشار خالد بن الوليد بالديوان. وقال : رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر [1].

ولعل هذه الرواية الأخيرة أوضح في سبب التدوين، ويرشحها ما ذكره ابن تيمية إذ يقول : «ولم يكن للأموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر (رضي الله عنه)، بل كان يقسم المال شيئًا فشيئًا ؛ فلما كان في زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كثر المال. واتسعت البلاد، وكثر الناس، فجعل ديوان العطاء للمقاتلة وغيرهم» [2]، ولما استقر رأى عمر على تدوين الديوان دعا "عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن

---

١ - مقدمة ابن خلدون : ج ٢، ص ٦١٤ .

٢ - السياسة الشرعية لابن تيمية : ص ٤٢، وراجع الفخرى في الآداب السلطانية، ص ٦٠ ففيه كلام قيم.

مطعم"، وكانوا من شباب قريش وكُتابها، وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم؛ فكتبوهم على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ. وما بعدها الأقرب فالأقرب، ثم روعي في التفضيل عند انقراض أهل السوابق. التقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد [1].

وفرض العطاء للناس جميعًا حتى للأطفال فقد أمر عمر (رضى الله عنه) مناديه «ألا لا تعجلوا أولادكم بالفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام؛ ففرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم، فإذا بلغ زاده» [2].

ومن هذا يتبين أن هذا الديوان كتب بادئ بدء بالعربية، كما أنه كان يضم الجند وأهل الأعطيات حتى الأطفال. «وتلك هي الحادثة الأولى في تاريخ العالم. حيث اضطلعت الحكومة بمسئولية إطعام سكان الدولة وكسوتهم» [3].

هكذا كان تدوين الديوان في ابتداء وضعه، وكان ذلك في المحرم سنة (٢٠هـ) [4]. وقيل كان ذلك سنة (١٥هـ) [5].

وبقي ديوان الخراج والجايات بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل: ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية. وكتاب الدواوين من أهل الذمة من الفريقين [6].

---

١ - الخراج للإمام أبي يوسف: ص ١٥؛ ٢٦، الأحكام السلطانية: ص ١٧٥؛ فتوح البلدان للبلاذرى: ص ٤٥٨، الطبرى: ج ٣، ص ٢٧٨، ط. التجارية، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى: ص ٨٨، مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦١٤.

٢ - الأحكام السلطانية: ص ١٧٨.

٣ - المصدر السابق: والإدارة العربية للحسينى: ص ١١٦.

٤ - البلاذرى: ص ٤٥٥، ٤٦٢، مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦١٤.

٥ - راجع الطبرى: ج ٣، ص ١٠٨، الفخرى في الآداب السلطانية: ص ٦٠؛ تاريخ أبي الفداء: ج ١، ص ١٦٠.

٦ - الأحكام السلطانية: ص ١٧٨، مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦١٤.

وقد تعددت الدواوين فى عهد الدولة الأموية، وصارت خمسة دواوين رئيسية [1] وهى:

١ - ديوان الجند ٢ - ديوان الخراج

٣ - ديوان الرسائل ٤ - ديوان الخاتم

٥ - ديوان البريد

فأما ديوان الجند فهو الذى يحصر جند كل إمارة وأعطياتهم [2] وكل ما يختص بهم؛ فهو يشبه ديوان وزارة الحربية، وهذا الديوان منذ وضع كان بالعربية.

وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل وخرج؛ فهو يشبه ديوان وزارة المالية.

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذى كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال، والإشراف على ما يرد منهم من رسائل فى الإمارات المختلفة. وكان بالعربية طبعًا.

وديوان الخاتم، هو الديوان الذى كان يقوم بأنظمة الدولة، وهو ديوان «به نواب؛ فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أحضر التوقيع إلى ذلك

---

١ - كان هناك إلى جانب هذه الدواوين الرئيسية دواوين أخرى أقل أهمية، منها: ديوان المستغلات أى ما يجبى لبيت المال من أسواق، أو منازل، أو طواحين ابتناها الناس فى أرض الدولة فيؤدون عنها خرجًا، راجع ابن حوقل: وقد أنشئ فى مصر ديوان للأوقاف والأحباس فى سنة ١١٨ هـ فى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن عمر الحضرمى، وكانت الأحباس قبله فى أيدى أهلها، وفى أيدى أوصيائهم، فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديوانًا عظيمًا. القضاء فى مصر: للأستاذ عطية مشرفة، ص ١٧٢، ١٧٣.

٢ - العطاء يجمع على أعطية (بفتح الهمزة) وجمع الجمع أعطيات، لسان العرب.

الديوان، وأثبتت نسخته فيه، وختم بخيط، وختم بشمع»[1]، وختم بختم ذلك الديوان. وهو يشبه قلم (الأرشيف) أو السجلات.

وكان ديوان الخاتم من أكبر الدواوين منذ أن أنشأه معاوية إلى أواسط دولة بني العباس؛ فأسقط لتحول الأعمال إلى الوزراء والسلاطين[2].

على أن ختم الرسائل كان معروفًا في زمن النبي ﷺ، فقد ثبت في الصحيحين أنه ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر فقيل له: إن العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة، ونقش فيه «محمد رسول الله» وتختم به أبو بكر، وعمر وعثمان، ثم سقط من يده في بئر أريس[3].

وكان لديوان البريد أهمية عظمى للدولة الإسلامية، للوقوف على أعمال الولايات وإدارة شئون الدولة، والاستخبارات العسكرية.

د - تعريب الدواوين:

«لما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر، ملكًا، وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان؛ فأمر عبد الملك سليمان ابن سعد والي الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية، فأكمله لسنة من يوم ابتدائه»، وأتى به إلى عبد الملك فدعا سرجون كاتبه، فعرضه عليه فغمه، وخرج

---

١ - الفخري في الآداب السلطانية: ص ٧٩.

٢ - الفخري في الآداب السلطانية: ص ٧٩.

٣ - الطبري: ج ٢، ص ٢٧٧، مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦٤٣، وعمر (رضي الله عنه) هو أول من ختم بالطين كما في الطبري، ج ٣، ص ٧٧، وكان هذا الطين صبغه أحمر. وكان في الدولة العباسية يعرف بطين الختم، وكان يجلب من سيراف فيظهر أنه كان مخصوصًا بها، مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦٤٥.

كثيبا، فلقيه قوم من كتاب الروم، فقال لهم: «اطلبوا المعيشة فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم»، وكان ذلك سنة (٨١هـ) [١].

وأما ديوان العراق فإن الحجاج أمر كاتبه صالح بن عبد الرحمن - وكان يكتب بالعربية والفارسية [٢] - أن ينقله إلى العربية ففعل، وكان ذلك سنة (٧٨هـ)، فشق الأمر على الفرس وبذلوا له مائة ألف درهم على أن لا يظهر النقل، فأبى عليهم، فرغم لذلك كتابهم، وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول: لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب. ثم جعلت هذه الوظيفة فى دولة بنى العباس مضافة إلى الوزير الذى كان له النظر فيه، كما كان شأن بنى برمك، وبنى سهل بن نوبخت، وغيرهم من وزارة الدولة [٣].

وأما ديوان مصر فقد نقل إلى العربية سنة (٨٧هـ) فى إمارة عبد الله ابن عبد الملك على مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فصرف عبد الله انتناش (القبطى) وجعل عليه ابن يربوع الفزازى من أهل حمص [٤].

«وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين: السياسية والأدبية. فمن الناحية السياسية أصبحت لغة الدواوين هى اللغة العربية، مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب، بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدى المسلمين العرب، ومن الناحية الأدبية أصبحت اللغة العربية لغة التدوين؛ فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت [٥].

---

١ - مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦١٥، الأحكام السلطانية للماوردى: ص ١٧٩.

٢ - لقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله، ولما قتل زادان فى حرب عبد الله ابن الأشعث استخلف الحجاج صالحًا هذا مكانه، الأحكام السلطانية للماوردى: ص ١٧٨، ١٧٩، مقدمة ابن خلدون: ج ٢، ص ٦١٥.

٣ - الأحكام السلطانية: ص ١٧٧، ١٧٨، ومقدمة ابن خلدون: ج ٥، ص ٦١٥.

٤ - الخطط للمقريزى: ج ١، ص ٩٨، ط. الأميرية.

٥ - النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله.

بلغت الدولة العباسية شأواً عظيماً من الحضارة، وتعددت مصالحها، فاستحدث خلفاؤها الكثير من الدواوين التي لم تكن موجودة من قبل. ولكن استدعتها حاجة الدولة وتطورها. كما توسعوا فيما كان موجوداً. وكان من أهم هذه الدواوين التي استحدثوها أو توسعوا فيها:

١ - ديوان الزمام ٢ - ديوان الأكرية.

٣ - ديوان الأحداث والشرطة. ٤ - ديوان البريد.

وديوان الزمام هو أن الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان، وهو من أعظم النظم التي أدخلها الخليفة المهدى. وهو يشبه ديوان المحاسبة.

وديوان الأكرية كان يشرف على القنوات، والترع، والجسور، وشئون الرى، فهو يشبه وزارة الأشغال فى زماننا.

وديوان الأحداث والشرطة، كان عمله خاصاً بالأحداث التي تقع فى الدولة، واجب الشرطة نحو هذه الأحداث؛ فهو قريب الشبه من وزارة الداخلية فى أيامنا.

وكان ديوان البريد من الدواوين الهامة فى بغداد.

كذلك كانت هناك إدارات خاصة للمحافظة على مصالح غير المسلمين. ويدعى رئيسها كاتب الجهباز.

ومن ثم يتبين أن النظام الإدارى فى أيام العباسيين من حيث توزيعه للعمل يعادل إلى حد كبير النظم الحديثة [١].

---

١ - النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله.